قصة سلامان وأبسال

للشيخ الرئيس أبى على الحسين بن عبد الله بن سينا

(٣٧٥ هـ — ٤٢٨ هـ)

لم تصل إلينا هذه القصة كما وضعها الشيخ الرئيس ، وإنما وصلنا شرح الطوسى لها ، المثبت على هامش كتاب « الإشارات والتنبيهات » ونوّه عنها ابن سينا فى غير كتابه هذا ، فى رسالة « القدر » الموجودة ضمن رسائل ابن سينا التى جمعها الأستاذ ميرن Mehren تحت عنوان « فى أسرار الحكمة المشرقية » طبعة ليدن سنة ١٨٨٩ . وكذلك أثبتها الجوزجانى ، فى ثبت مؤلفات ابن سينا .

والقصة تكاد تكون مجهولة . أضف إلى ذلك مايكتنفها من غموض ويشيع فيها من اضطراب ، سببه الأول أن النص الأصلى لم يصل إلينا . وسببه الثانى أن القصة تلخيص مركز جدًّا لمذهب ابن سينا فى النفس ولمذهبه فى السعادة . وسببه الثالث أنها كتبت على الطريقة الرمزية ، بل يخيل إلينا أن ابن سينا قد وضعها فى شكل لغز علينا أن نعنى بحله ؛ فإنه يقول :« وإذا قرع سمعك فيما يقرعه ، وسرد عليك فيما تسمعه ، قصة لسلامان وأبسال ، فاعلم أن سلامان مثلٌ ضرب لك ، وأن أبسالا مثل ضرب لدرجتك فى العرفان إن كنت من أهله ، ثم حل الرمز إن أطقت . تنبيه من مقامات العارفين . » والقصة فوق ذلك كله ، مجهولة التاريخ ، ولا يعلم عن مصادرها شىء ما ، ولعلها أيضاً أن تكون غير محددة الموقف من تراث ابن سينا نفسه ، وبالنسبة إلى قصص أخرى كثيرة بهذا العنوان « سلامان وأبسال » .

والقصة تنقسم كأى قصة أخرى إلى الشخصية والحركة . وكل شخصية فيها تعبر عن قوة من قوى النفس ، وكل حركة فيها ترمز عن النزوع الطبيعى

لهذه القوة . وهنا لابد أن ينشأ صراع هائل بين قوى النفس جميعاً ؛ فهى ليست كلها موجهة إلى هدف واحد ، بل بعضها طامح إلى السماء ، وبعضها نازع إلى الأرض ، والإنسان فى كل ذلك هو المسرح الذى تتصارع فى ساحته هذه القوى . ولكن ابن سينا كان قد وضع الخطة التى من شأنها أن تؤدى بهذا الإنسان إلى الله . فالقصة تحكى حركة طموح الإنسان وصراعه فى سبيل الوصول إلى الحق أو المجهول ؛ وعلى ذلك لا بد أن نحلل كل شخصية من شخصيات القصة ، ونرى ما يقابلها من قوى نفسية ، وبدون ذلك لن يتسنى لنا أبداً أن نفهم القصة فى أعماقها . والحق أننا فى القصص العادية يمكن أن نفهم الشخصية من خلال الحركة التى تقوم بها ، ولكن فى قصة ابن سينا لابد أن نفعل العكس ، أعنى أن نفهم الشخصية أولا ، من حيث هى شخصية ، وذلك هو الذى سيفسر لنا حركة هذه الشخصية .

لذلك كله ، نرى أن الخوض المباشر فى القصة غير مجد ، وعليه تحتم علينا قبل ذلك (١) أن نمهد لها بتمهيد تاريخى (٢) ثم يعقب ذلك تحليل شخصيات القصة (٣) وأخيراً نشرع فى عرضها .

١ — التحقيق التاريخى فى قصة سلامان وأبسال

الأصل اللغوى لقصة سلامان وأبسال — الرمزية فيها — قصص أخرى بعنوان سلامان وأبسال — تاريخ القصة ومصادرها — موضع القصة من تراث ابن سينا .

لم ترد لفظة « سلامان » فى الزمخشرى أو تاج العروس ، وأوردها لسان العرب ، ومعناها ضرب من الشجر السهلى ، وواحدته «سلامانة» اسم رجل ، واسم جبل . ولفظة « أبسال » لم ترد فى تلك المعاجم الثلاثة ، ولكن ورد المصدر من « أبسل » بمعنى أسلمه للهلكة ، وهو « إبسال » بكسر الألف . وليسهل فى كل ذلك ما يمكن أن يكون ابن سينا قد قصد إليه فى المعنى اللغوى للألفاظ .

وقال نصير الدين الطوسى + ١٢٧٣ م . أن هذين الاسمين يسيران فى أمثال

العرب، ويردان فى قصص لهم قديمة، ويذكر فى هذا الصدد كتابا لابن الأعرابى بعنوان « النوادر » رويت فيه قصص كان أبطالها سلامان وأبسال. وكتاب النوادر لم يصل إلينا، كما أنه لم يصل إلى الطوسى أيضا. وليس فيما أوردته تلك المعاجم من نوادر لابن الأعرابى، ما يمكن أن يكون ابن سينا قد استفاد منه فى وضعه لهذه القصة. وعلى الرغم من أن الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » قد أورد لابن الأعرابى كثيراً من المقتطفات، فإنه لم يذكر لفظتى سلامان وأبسال، أو قصة شبيهة من قريب أو بعيد بقصة سلامان وأبسال. ولقد كان سلامان على حسب قول الطوسى، يمثل فى تلك القصص القديمة المتداولة، الرجل الخير الذى يفوز وينتصر، على حين يمثل أبسال الرجل الشرير، الذى تنتهى حياته بأن يقع فى أسر الأعداء، فأصبح من ذلك مثلا يتداوله العرب.

ويتضح من ذلك، أن لفظتى « سلامان » و « أبسال » ليستا اسمين عربيين صميمين، ويتضح كذلك أن هذه القصص التى تحاك حولهما عند العرب، لا يمكن أن تكون قد أوحت إلى ابن سينا قصته، التى هى فى آخر الأمر تصوير لطموح الإنسان المشبوب لاعتناق المجهول. إن سلامان رمز للإنسان، وأبسال هو رمز لقوته الناطقة، التى هو بها ما هو؛ فليس هما رمزين للخير والشر، حتى نقول إن ابن سينا قد ساير الأمثال المتداولة عند العرب عن سلامان وأبسال.

ولكن لماذا كتب ابن سينا قصته هذه على الطريقة الرمزية؟ إن النزعة الرمزية عند ابن سينا لم تكن عابرة ولا سطحية، بل كانت تملك عليه جانبا كبيراً من روحه العميق، ذلك الروح الذى أسلمه عمقه — والحق يقال — إلى غموض الأسطورة. وهنا يودِّع ابن سينا العقل اليونانى البكر، يودع ذلك العقل الحسى؛ فإن ذلك العقل لم يكن بعدُ قد عرف هذه التفرقة بين المرئى واللامرئى. ومنذ تلك التفرقة، التى أرهص بها على الرغم من ذلك زينو الأيلى حينما أنكر حركة السهم — أقول منذ تلك التفرقة بين المرئى واللامرئى، يمكن أن يقوم التفكير الأسطورى أو الدينى. وهنا أيضاً، لا بد من السعى لاكتشاف هذا الجانب اللامرئى، وحينئذ نضفى لغتنا الحسية، على موضوعات ذلك الجانب، فكون الرمز.

لقد وضع ابن سينا جزءا كبيراً من تراثه الفلسفى الضخم على أساس هذه

الطريقة الرمزية . كتب بها غير قصة سلامان وأبسال ، قصة « حى بن يقظان » وهى غير « حى بن يقظان » لأبى بكر محمد بن عبد الله بن محمد طفيل العتيسى ، ويسمى الأندلسى القرطبى أو الأشبيلى + ٥٨١ هـ . وكتب ابن سينا بهذه الطريقة أيضاً قصة الطير ، وقصيدته فى « النفس » ، ورسالته فى « القدر » التى أوردها الأستاذ ميرن Mehren أو كما يحب أن يسمى نفسه : الفقير إلى الله ميكائيل بن يحيى المهرنى ضمن مجموعة ابن سينا التى سماها الأستاذ ميرن « فى أسرار الحكمة المشرقية ليدن سنة ١٨٨٩ » . بل إن النزعة الرمزية قد تجاوزت القصص التى كتبها ، فظهرت بوضوح فى وضعه لدرجات العارفين ، وتبيينه لدرجات الترقى من « الرياضة » إلى « النيل » إلى « الوصول » . النزعة الرمزية عند ابن سينا تمثل خاصية هامة من خواص روح ابن سينا . فلماذا لجأ إلى هذه الطريقة ؟ ولم يذهب مباشرة ، وعن طريق اللغة الفلسفية الواقعية للإدلاء بما يريد ؟

نجد السبب الأول لذلك — فوق المقدمات الحضارية العامة — فى مجموعة رسائل ابن سينا طبعة حيدر أباد ، فى رسالة « سر القدر » وهى غير رسالة « القدر » التى ذكرناها الآن — حيث نجد: « سأل بعض الناس الشيخ الرئيس أبا على بن سينا عن معنى قول الصوفية : من عرف سر القدر فقد ألحد ، فقال فى جوابه : إن هذه المسألة فيها غموض ، وهى من المسائل التى لا تدوّن إلا مرموزة ، لما فى إظهارها من إفساد العامة . والأصل فيه ما روى عن النبى : القدر سر الله ، ولا تظهروا سر الله . » (ص ٢) . وإذن فالسبب الذى حدا بابن سينا أن يكتب قصته على الطريقة الرمزية ، هو أن طبيعة موضوعها ، من حيث إنه معاينة الله ، يقتضى أن يوضع فى هذا الثوب الرمزى ، لما يكتنف ذلك الموضوع من غموض ، ولما يكون من أثر إذاعته وإظهاره من إفساد للعامة الذين يأخذون الأمور على علاتها .

أما السبب الثانى ، فقد ورد فى قصة حى بن يقظان لابن طفيل ص ٦ طبعة مصر — وهو يكاد يكون معبراً عن آراء ابن سينا ، حيث يقول رداً على جواب السائل الذى يريد أن يبث أسرار الحكمة المشرقية « والغرض الثانى من الغرضين اللذين قلنا إن سؤالك لن يتعدى أحدهما ، هو أن تبتغى التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر . وهذا ، أكرمك الله بولايته ، شىء يحتمل أن

يوضع فى الكتب . وتتصرف فيه العبارات ، ولكنه أعدم من الكبريت الأحمر ، ولا سيما فى هذا الصقع الذى نحن فيه ؛ لأنه من الغرابة فى حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر بشىء منه ، لم يكلم الناس به إلا رمزاً ؛ فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه» .

فلعل ابن سينا إذن قد ظفر بشىء من هذه الحكمة ، ولما كانت الملة الحنيفية والشريعة المحمدية ، منعت وحذرت من الخوض فيه ، فهو لا يكلم الناس به إلا رمزاً .

فثمة إذن سبب داخلى متصل بطبيعة الموضوع ، من حيث إنه غامض ولطيف ، بحيث لا تدركه إلا لغة غامضة لطيفة ، يكون من شأنها ألا تحيط به ، إحاطة السوار بالمعصم ، بل تدعه يجول فيها ، وتدع له نوعا من الحرية فى الانكماش والتمدد ، والظهور والاختفاء . وثمة سبب خارجى ، هو أمر الدين ونهى الشرع . إن موضوع سلامان وأبسال ، من أسرار الله ، ومن خاض فى سر الله وحاول الكشف عنه ، فقد ألحد .

قصة سلامان وأبسال قصة رمزية يمكن إرجاع الرمزية فيها إلى سبب حضارى عام ، هو أن الفكر العربى كان يتوزعه تياران : التيار الغيبى اللامرئى ، والتيار الواقعى المرئى . وهو مضطر حينما يخوض فى الأول ، أن يلجأ إلى وسائل الثانى ، وهنا يكون الرمز . أضف إلى ذلك السببين الموضوعيين الآنفين ، وأسباب أخرى فرعية ، مثل نزعة ابن سينا الفنية ، واستعداده الشخصى لمثل هذا النوع من الكتابة ودراسته للأدب .

ولم يكن ابن سينا وحده هو أول من ألف قصة بهذا العنوان وعلى هذه الطريقة ؛ فهناك القصة المنسوبة إلى حنين بن اسحاق + ٢٦٠ هـ . وقد أوردها نصير الدين الطوسى فى شرحه ، وذيّل بها كتاب « تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات » لابن سينا ، وهناك فرق طفيف بين إيراد الطوسى لها ، وبينها مثبتة فى ذيل تسع الرسائل إذ أن الطوسى قد عمل على اختزالها فى كثير من المواضع . ولكن هذا لا يمس شيئاً جوهريا فى القصة ، فما زالت أبسال المرأة الفاجرة تغرى سلامان ابن الملك هرمانوس الذى لم تكن له زوجة ؛ وإنما ركب ابنه هذا تركيباً ، وصنعه صناعة ، وأقامه على الأرض من غير الطريق الذى نسلكه جميعاً إليها : تأخذ أبسال فى إغراء سلامان وتكشف له عن

مفاتنها ، وتظهر له ما بين أحضانها من لذة شهية . ويكاد سلامان ينقاد ، لولا أن يستعين أبوه هرمانوس بالحكيم أقليقولاس على إهلاك أبسال الفاجرة ، فتنتهى هذه بالغرق ، وينقذ سلامان من براثن المرأة .

ولقد قالت الرواية أن حُنَيْنًا قد ترجم هذه القصة عن اليونانية ولكن القفطى + ٦٤٦ هـ . ص ١١٦ طبعة الخانجى ، لم يورد ترجمة لحنين بهذا العنوان . ولقد لاحظنا أنه أورد لحنين كتاباً بعنوان « رسالة الحمام » لعلها أن تكون الأساس فى رسالة « الطير » لابن سينا ، أما سلامان وأبسال ، فلم يرد لها ذكر عند القفطى . وقد تخلص الطوسى من هذه القصة بأنها من خلق بعض العوام ؛ على أنها مازالت فى حاجة إلى البحث والتحقيق .

وثمة شبه بين القصة المنسوبة إلى حنين وقصة ابن سينا ؛ فموضوع كليهما العام ، هو الصراع بين العقل والشهوة ، أو بين الروح والجسد ، كل يريد أن يجذب الآخر ويفنيه فى نفسه ، وسينتهى هذا الصراع فى كليهما إلى انتصار العقل ، وسيادة الروح . والسبب الذى يجعلنا نرفض القصة المنسوبة إلى حنين من حيث إنها كانت مصدرا لقصة ابن سينا ، أن أبسال تمثل فى القصة الأولى القوة الشهوية ، على حين تمثل عند ابن سينا القوة الناطقة . أضف إلى ذلك أن الاختلاف واقع فى كل تفاصيل الصراع ، والاتفاق فى الموضوع العام والخاتمة ، لا يعنى أن قصة ابن سينا قد نسجت على منوال القصة المنسوبة إلى حنين .

أما القصة الثانية التى يلعب فيها سلامان وأبسال دورا كبيرا ، فهى قصة حى بن يقظان لابن طفيل . فبعد أن نيّف حى بن يقظان على سبعة أسابيع من منشئه ، وذلك خمسون عاما ، هبط إليه من جزيرة مجاورة أسال ، وزير الملك سلامان ، وتعرف كل واحد منهما على الآخر بسهولة ؛ فقد وصل حى ابن يقظان — وهو يشبه فى جزيرته النائية روبنصن كروزو إلى حد بعيد — إلى الحقيقة عن طريق النظر المجرد الصرف ، ووصل إليها أسال عن طريق الشرع ، فما لبث كل منهما أن تعلق بالآخر ، وذهبا معاً لهداية الملك سلامان وقومه ، ثم يعودان من هذه المحاولة بالإخفاق ؛ فقد اتفقت الفلسفة مع الدين ، ولكن كليهما لم يتفق مع المصالح الدنيوية التى يمثلها سلامان . لقد كانت مصادفة عجيبة أن يعبر ابن طفيل بالقصة عن ذات ما عبر عنه ابن رشد فى كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » . ولكنها على كل حال

ليست مصادفة عجيبة جداً ؛ فقد كان التوفيق بين الشريعة والحكمة هو الشاغل الأول للفلسفة الإسلامية .

لقد لاحظنا أن سلامان وأسال عند ابن طفيل ملك ووزيره ، أما عند ابن سينا فهما أخ وأخوه . والدور الذى يلعبانه فى قصة الأول يختلف اختلافاً كبيراً عن الدور الذى يلعبانه فى قصة الثانى .

ولقد ظن بعض المترجمين والباحثين لقصة ابن طفيل ، أنها من تأليف ابن سينا ، ولم يزد ابن طفيل على أن جمع بين قصتى ابن سينا « سلامان وأبسال » و « حى ابن يقظان » ، فى صعيد واحد ، عنونه بحى بن يقظان . أنظر : إننا فى طبعة القسطنطينية لقصة حى بن يقظان نقرأ العنوان التالى : « قصة حى بن يقظان فى الفلسفة الشرقية للإمام أبى جعفر بن طفيل : وهى مستخلصة من المؤلفات القيمة فى الحكمة الشرقية لأبى على الحسين بن عبد الله بن سينا . . . »

والحق أن من الممكن ملاحظة أن ابن طفيل كان يعتمد فى وضع قصته على قصتى حى بن يقظان وسلامان وأبسال لابن سينا ، وأنه قد جمع بين هذه القوى الثلاث فى قصة واحدة . ولكنه ، والحق يقال ، كان قد أخرج بهذا الجمع قصة جديدة ، تختلف اختلافا بينا عن قصتى ابن سينا . فهو لم يجمع بينهما فقط ، وإنما ألف بينهما أيضا . واقتضى هذا التأليف بعض الزيادات وبعض الحذف وبعض العناصر المبتكرة الجديدة . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ L. Gauthier جوتيه فى بحثه فى ابن طفيل .

وفى مادة « ابن طفيل » فى دائرة المعارف الإسلامية ، يزعم المعقب على المقالة ، أن الشاعر الفارسى جامى Jami قد اتخذ قصة ابن سينا « سلامان وأبسال » أساسا لمقطوعاته الشعرية المشهورة « سلامان وأبسال » التى ترجمت إلى الإنجليزية وترجمت أيضاً إلى الفرنسية بوساطة Auguste Brieteau أوجست بريتو . والواقع أن هذا الزعم غير صحيح ؛ لأن مقطوعات جامى أقرب إلى القصة المنسوبة إلى حنين منها إلى قصة ابن سينا . فسلامان فى أشعار جامى أمير شاب ، وأبسال ظئره ، التى تصبح معشوقته فيما بعد . ومن هنا يظهر أن جامى ، كان يعتمد فى لا شعوره ، على القصة المنسوبة إلى حنين ، والتى يخلط بينها كثيراً وبين قصة ابن سينا .

ويحتمل أن هذه القصص جميعاً ترجع فى مصادرها الأولى ، إلى العصر

الإسكندرى . فنحن نعلم أن قصة حى بن يقظان لابن سينا ، والتى قلده فيها ابن عزرا ، تشبه فى جوهرها كتاب « بيمندريس » أو « راعى الناس » المنسوب إلى «هرمس» ، وهو محاورة امتزج فيها المذهب الأفلاطونى المحدث باعتقادات قدماء المصريين ، وتمثلت فى صورة شيخ بهى المنظر ، هو عند ابن سينا حى ابن يقظان ، وبين تلميذه هرمس إله الحكمة . وتناولت هذه المحاورة فى الوقت نفسه كيفية الخلق ، والإشراق ، أى إفاضة العقل الفعال الذى هو نهاية العقول السماوية ، على العقل المستفاد الذى هو أرقى القوى الإنسانية — أقول إفاضة العقل الفعال على العقل المستفاد المعقولات المحضة . وقد عرف الإسلاميون كتاب بيمندريس ، وأشار إليه القفطى فى « تاريخ الحكماء » .

هذا كله فيما يتصل بقصة حى بن يقظان لابن سينا . وقصة سلامان وأبسال تعالج نفس الموضوع ، فلا يبعد أن تكون قد تأثرت بنفس المؤثرات ، وخضعت لنفس الجو الروحى المعبق بغموض التصوف . ولكن ابن سينا على كل حال لم يكن خالصاً إلى التصوف ؛ فالحق أنه أكبر من عانى الأزمة التى خلقت الحضارة الإسلامية برمتها . أجل إنه عاش طوال حياته ، يريد أن يرقى على الغيبية من جهة ، والواقعية من جهة أخرى ، ليخرج بمركب جديد ؛ ولذلك نجد فى ذات قصته الإشراقية الفيضية ، عناية بالواقع ورأفة بالأرض . إنه إنسان يعيش فى الحضارة الإسلامية التى لم تثر على النزعة العملية الأصيلة فيها ، إلا عند ما ثارت على نفسها ، وأرادت أن تخرج من ذاتها . فبجانب هذه المؤثرات الأفلاطونية المحدثة العزوفية ، نجد المؤثرات الإسلامية من حيث الحض على الفضيلة العملية ، وإباحة العمل فى الحياة ، وتدبير شؤون المنزل ، وتنظيم مرافق المدينة .

بل من يدرى ، إن خطأنا غير محتمل أبداً ، إذا قلنا إن ابن سينا كان ينسج فى قصته « سلامان وأبسال » على منوال قصة يوسف التى وردت فى القرآن . فالشبه بينهما قوى لدرجة عجيبة حقا . بل لماذا نذهب بعيداً ، وقد كان ابن سينا نفسه يشعر شعوراً قويًّا بهذا الشبه . أنظره إليه يقول فى رسالته « القدر » التى نشرها الأستاذ ميرن ، على لسان حى بن يقظان ، وهو يهدئ من صخب مجادله : « وما كل يعصم عصمة يوسف حين رأى برهان ربه ، وكانت همت به وهم بها ، ولا عصمة أبسال حين انبلج برق فأراه وجهها » .

لقد تأثر ابن سينا قصة يوسف سواء كان واعياً بذلك أو غير واع . فايوسف فى الحقيقة إلا ابسال ، وما الحاكم أو عزيز مصر إلا سلامان ، وزوجة العزيز هى النفس الأمارة أو زوجة سلامان ، وهى تهيم بأبسال ، كما هامت زوجة العزيز بيوسف ، فيرتد عنها على أثر انبلاج برق إلهى فى خاطره ، كما انبلج برهان الرب فى خاطر يوسف ، وإخوة يوسف الذين قاوموه ، هم فى قصة ابن سينا الجيش (أى الحواس) الذى تخلى عن أبسال وتركه عرضة للموت . وكما انتهى يوسف من هذا الصراع بالنصر والفوز ، انتهى أبسال أيضاً إلى نفس النتيجة المتفائلة ؛ فالخير ينتصر على الشر ، ويكون السلام على الأرض ، والمجد لله فى الأعالى .

ونتهى من هذا كله ، بأن قصة ابن سينا متأثرة فى وضعها الفنى بقصة يوسف ، ولاسيما أن ابن سينا قد حفظ القرآن ووعاه ، وشب متأثراً بمعانيه وقصصه منذ بلغ العاشرة ؛ كما أنها متأثرة فى أفكارها ، بل صدرت فى أفكارها عن الأفكار الأفلاطونية المحدثة الإشراقية .

ولسنا نستطيع أن نعين بالضبط تاريخ تأليف تلك القصة ، ولكننا نعلم أن قصة حى بن يقظان لابن سينا ، قد كتبت فى الفترة الواقعة مابين سنة ٤١١ هـ ـ سنة ٤١٤ هـ . وهى فترة مضطربة جدًّا من حياة ابن سينا ؛ فلقد أسره الأمير تاج الملك ، وزج به فى السجن ، فى قلعة تسمى « فردجان » ، وبين جدران تلك القلعة كتب ابن سينا حى بن يقظان . ولا يبعد أن تكون قصة سلامان وأبسال ، قد كتبت أيضاً فى هذه الفترة المضطربة ؛ فهى فى الحقيقة ومن الناحية الفنية تعد الحلقة الثانية لقصة حى بن يقظان ، فهى تتدفق فى نفس المحيط المجهول ، وتستشرف نفس الآفاق النائية . وليس من الغريب أن يشرع ابن سينا السجين ، فى رسم طريق الحرية ، بقصته سلامان وأبسال . تلك هى نزعة الإنسان الواعى الذى يجد الأغلال حول جسده وروحه ؛ تراه ينفجر فى ثورة روحية هائلة ، فيتحرر من ربقة الحواس ، بل من ربقة العقل ذاته ، وحينئذ يشعر بأزمة الحرية فى أقصى درجة من درجاتها . وهنا تراه يخاف الحرية الموفورة أمامه . أجل ! يخافها ، فإذا به يتحرر من الحرية ذاتها ، ويسلم نفسه لله . هكذا فعل سلامان ، إنسان ابن سينا ، ولعل ذلك مايفعله الوجودى المسيحى أيضاً .

إن تلك القصة تعبير عن حالة لابن سينا ، لانكاد نجدها فى تاريخ حياته إلا فى تلك الفترة الواقعة بين سنتى ٤١١ هـ — ٤١٤ هـ . ولما كان من الممكن النظر إليها على أنها تمضى فى نفس الفكرة التى ابتدأت فى قصة حى بن يقظان ، المؤلفة فى تلك الفترة ، فلعل قصة سلامان وأبسال ، قد وضعت أيضاً إبان تلك السنوات .

والآن يجب علينا أن نعرف : ما موضع هذه القصة من التراث الروحى لابن سينا ؟ لقد رأينا موضعها التاريخى من حياة ابن سينا . أما موضعها العضوى فى فكره ، فهو فى الحكمة المشرقية ، على الرغم من أن ميرن Mehren لم يوردها فيما أورده من رسائل الشيخ الرئيس تحت هذ العنوان . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن نص القصة مفقود ، وكان ميرن يعنى بجمع نصوص ابن سينا الإشراقية ، لا الشروح على تلك النصوص . نحن نعلم أن الشيخ كان خاضعاً لتيارين رئيسين : التيار المشائى الأرسطاطالى ، والتيار الأفلاطونى المحدث ، وإلى هذا الأخير تعزى الحكمة المشرقية لابن سينا ، ومن هذه الحكمة قصة سلامان وأبسال .

ولابن سينا كتاب مفقود ، بعنوان «الحكمة المشرقية» . وكان يظن دائماً أنه يعالج — كما نتبين ذلك من حديث ابن طفيل فى قصته حى بن يقظان عن تلك الحكمة — المسائل المستورة ، من إشراق واتحاد ونيل ووصول . هو كتاب ، كان يظن أنه نسجت على غرا « قصة حى بن يقظان لابن طفيل ؛ فهو إذن يحتوى على أسرار الإشراق ، التى يمكن أن تعتبر بدءا لمذهب السهروردى المقتول + سنة ٥٨٧ هـ ، أعنى أن كتاب الحكمة المشرقية هذا ، يجب أن يوضع فى مذهب التصوف السرى الذى نادى به السهروردى المقتول وتلاميذه . وقد سلم بذلك البارون كاراديفو وبوزى وكيورتن وهوزرتن وجولدتسيهر وديبور . . . بل معظم المستشرقين الذين سبقوا الأستاذ كارلو الفونسو نللينو + ١٩٣٨م . فقد جاء المستشرق ببحث نشره سنة ١٩٢٥ فى مجلة « الدراسات الشرقية » ، وترجمه إلى العربية الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية » (من ص ٢٤٥ — ص ٢٩٦) . وهذا البحث أثبت بطريقة تكاد تكون نهائية أن كتاب الحكمة المشرقية ، هو كتاب على غرار كتب ابن سينا فى الفلسفة المشائية ، يتكون من ثلاثة أجزاء : المنطق والطبيعة والإلهيات

وأن كتاب منطق المشرقيين المنشور فى القاهرة هو جزء من هذا الكتاب « الحكمة المشرقية » .

وقد اعتمد الأستاذ نللينو فى ذلك على نصوص كثيرة ، كانت موسومة بعنوان الحكمة المشرقية ، وهى ليست فى مضمونها إلا تعبيراً عن الحكمة المشائية .

وإذن فماذا كان يعنى ابن طفيل ، حين أخذ يبث صديقه أسرار الحكمة المشرقية التى قال بها ابن سينا ؟ قال الأستاذ نللينو بعد أن شرح بإيجاز قصتى ابن سينا : حى ابن يقظان ، وسلامان وأبسال : « وليس من شك فى أن ابن طفيل أشار إلى هاتين القصتين الرمزيتين ، ذواتى الطابع الفلسفى الصوفى اللتين ألفهما ابن سينا ، واللتين لا تفهمان بدون شرح ، حين قدم قصته هو على أنها إجابة على سؤال صديق ، طلب منه أن يبث إليه أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها . . . ابن سينا . ومن المحتمل كثيراً أن تكون نسخة قصة سلامان وأبسال ، التى كانت بين يدى ابن طفيل ، كانت تحمل العنوان التالى : « فى أسرار الحكمة المشرقية » ، وهو العنوان الذى أضافته بعض المخطوطات والطبعات الشرقية ، إلى عنوان قصة حى بن يقظان لابن طفيل . (ص ٢٩٢ — ٢٩٣ التراث اليونانى) .

فكأن الحكمة المشرقية يحتمل كثيراً أنها هى قصة سلامان وأبسال . وعليه فليس ابن سينا هو المبشر الأول بمذهب الإشراق ؛ إنما ابن سينا مشائى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . وإذا كان ابن سينا قد تكلم فى التصوف ، فهو كلام عابر ، لا يدخل فى صلب مذهبه ولا يكوّن دعامة من دعائمه — هو كلام يتوّج مذهبه كما يقول ديبور .

إن هذه النتائج التى وصل إليها نللينو ليست حاسمة ولا جازمة ، للأسباب الآتية :

أولا — أن نللينو قد وضع فرضاً لا يزال فى حاجة كبيرة إلى التحقيق والإثبات ، وهو أن قصة سلامان وأبسال ، التى وقعت لابن طفيل ، يحتمل كثيراً أن تكون قد أضيف إليها العنوان التالى : فى أسرار الحكمة المشرقية . وهذا الاحتمال ، لا يقوى افتراض أن كتاب الحكمة المشرقية كتاب مشائى .

ثانياً — أن نللينو لم يبيّن الصلة التى كان يمكن أن تقوم بين كتاب

الحكمة المشرقية وبين كتاب اخر لابن سينا مفقود ، ولكن أثبته الجوزجانى وهو « كتاب المشرقيين » . ومجرد ذكر هذا الكتاب ، يثير أمامنا هذه المشكلة : لماذا لا يكون كتاب منطق المشرقيين ، والنصوص التى اطلع عليها نللينو ، المسماة باسم الحكمة المشرقية ، مع أن مضمونها مشائى صرف — أقول لماذا لا يكون كتاب المشرقيين وتلك النصوص جزءا من « كتاب المشرقيين » ويظل كتاب الحكمة المشرقية كتاباً فى الحكمة الإشراقية ، كما كان يفهمها ابن طفيل ، ومعظم المستشرقين السابقين على نللينو ؟

ثالثاً — أن الغض من الجانب الإشراقى فى روح ابن سينا ليس له أساس من الصحة . فهب كتاب الحكمة المشرقية كتابا مشائيا ، فإن ابن سينا على الرغم من ذلك إشراقى فى أعماق روحه . إنه إشراقى حتى فى صميم كتبه المشائية ، هذا زيادة على تراثه الإشراقى الخالص . بل لماذا نذهب بعيداً ، ونظرية ابن سينا فى الوجود تقوم على الفيض والإشراق ؛ فإن الواجب بذاته يتعقل ذاته ، فيفيض عنه العقل الثانى الواجب بالأول الممكن بذاته . وهذا يتعقل الأول ، فيحدث أن تعقله للأول يفيض عليه الخير ، فينشأ العقل الثالث ، وهكذا دواليك إلى العقل العاشر . ونظرية المعرفة عند ابن سينا نظرية إشراقية ؛ فالعقل الهيولانى فى درجات ترقّيه ، يتطور ويسمو ، فيصير عقلا بالملكة ، ثم عقلا بالفعل ، ثم عقلا مستفاداً . والعقل المستفاد هو العقل الذى يتلاءم لإشراق العقل الفعال عليه بالمعقولات المحضة . ونظرية السعادة عند ابن سينا تبدأ من اللذة الأرسطاطالية ، ولكنها تمضى بعد ذلك فى معارج الفيض ؛ لأن خير لذة هى لذة القوة الناطقة ، ولذتها هى كمالها ، وكمالها هو ابتهاجها بعشق جناب الحق ، والفناء فيه ، والوصول إلى درجة الغائب الحاضر .

يجب إذن أن نفسح مكانا لأفلاطون فى الفكر الإسلامى ، حتى نفهم هذا الفكر على حقيقته . ويجب أن نعلم أيضا ، أن قصة سلامان وأبسال ، من حيث إنها تلخيص لإشراقية ابن سينا ، تفسر جانبا ضخما جدا من جوانب الفكر الإسلامى .

عباس احمد

[تتمة البحث فى عدد قادم]